بسم الله الرحمن الرحيم – ثابت عيد – زيورخ في ١٩٩٥/٤/٣–

الخمر في الشعر الإسلامي

بقلم المستشرق الألماني: يوحنا كريستوف بيرجل

ترجمه عن الألمانية وقدم له: ثابت عيد

تقديم المترجم

يعالج المستشرق الألماني المعروف يوحنا كريستوف بيرجل في بحثه هذا إشكالية الخمر في الشعر الإسلامي. وممن بحث هذا الموضوع من المحدثين العالم المصري أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» (الجزء الأول)، وطه حسين في الجزء الثاني من «حديث الأربعاء»، وشوقي ضيف في موسوعته «تاريخ الأدب العربي»، وغيرهم. ولكن دراسات هؤلاء العلماء العرب اقتصرت على بحث الموضوع في إطار تاريخ الأدب العربي فحسب، دون أن تمتد لتشمل الآداب الإسلامية الأخرى. فالخصام بين العرب وبعض الشعوب الإسلامية الأخرى – وهو خصام قديم متأصل – قد حال بينهم وبين ترجمة آثار هذه الشعوب وآدابها وقتا طويلا. أدى ذلك مثلا إلى أن شاعرا مثل شاعر إيران الكبير حافظ الشيرازي هو أكثر شهرة في الغرب منه في شرقنا الإسلامي. والشيء نفسه ينطبق على الشاعر الإيراني جلال الدين الرومي. وفي مقاله هذا، أشار بيرجل إلى أشعار حافظ الشيرازي، وجلال الدين الرومي، وعمر الخيام، الخاصة بالخمر. وهي أشعار لا يعرف المثقف العربي منها، إلا رباعيات الخيام. أما أشعار حافظ والرومي، فلم يكتب لها الانتشار بعد في عالمنا العربي، برغم وجود ترجمة عربية محترمة لديوان حافظ، قام بها تلميذ طه حسين، ابراهيم أمين الشواربي، وبرغم وجود عدد من العلماء المصريين والعرب القائمين على ترجمة الأدب الفارسي إلى اللغة العربية. ونستهل ترجمة بحث المستشرق بيرجل ببعض الملاحظات التمهيدية:

أولا: مما أوردته كتب الأدب العربي القديم عن آفات الخمر، «أنها تـُذهب العقل، وأفضل ما في الإنسان عقله، وتحسن القبيح، وتقبح الحسن». وحكى صاحب «العقد الفريد» أن مشارب الرجل يقال له نديم من الندامة، «لأن معاقر الكأس إذا سكر، تكلم بما يندم عليه»(١). وقال قصي بن كلاب لبنيه: «اجتنبوا الخمر، فإنها تصلح الأبدان، وتفسد الأذهان»(٢). ولما قيل لعثمان بن عفان: «ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية، ولا حرج عليك فيها؟» قال: «إني رأيتها تذهب العقل جملة. وما رأيت شيئا يذهب جملة، ويعود جملة»(٣). ويُحكى أن قوما سقوا أعرابية مسكرا، فقالت: «أيشرب نساؤكم مثل هذا؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدكم من أبوه»(٤). ومن ألطف ما قرأت في وصف حالة السكر قول الشاعر:

«أقبلت من عند زياد كالخرف
أجـر رجـلي بخـط مختـلف
كأنما يكتبان لام ألف»(٥).

ثانيا: تحكي كتب التاريخ أن أهل الحرمين أباحوا الغناء وحرموا النبيذ، وأن أهل العراق أباحوا النبيذ وحرموا الغناء(٦). ونظرا لأن البصرة كانت منشأ الاعتزال، فقد أباح بعض المعتزلة أنواعا معينة من النبيذ. ويبدو أن ذلك هو سبب وصف المقدسي للمعتزلة بالفسق، حيث نسب إليهم أربع خصال، هي: «اللطافة والدراية والفسق والسخرية»(٧). وقد استغل خصوم المعتزلة من الأشاعرة وأهل الحديث وغيرهم هذه المسألة

بالذات، وقاموا بالتشنيع على فلاسفة المعتزلة. من ذلك مثلا اتهام عبد القاهر البغدادي، وهو أشعري متطرف، لابراهيم النظام المعتزلي بإدمان السكر(٨). وهذه التهمة لا يمكن فهمها، إلا في إطار الصراع العقائدي العنيف بين المعتزلة والأشاعرة؛ وإلا – لو كان الأمر يتعلق حقا باستنكار شرب الخمر – لكان أولى بالبغدادي والأشاعرة أن يهاجموا صاحبهم الخليفة المتوكل الذي قال عنه المسعودي في «مروج الذهب»: «ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ... إلا المتوكل، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له»(٩). فالأشاعرة والحنابلة تغاضوا عن مساوئ المتوكل الكثيرة، لأنه اضطهد المعتزلة، وانتصر لمذهب ابن حنبل. أما تحامله على الشيعة، وظلمه لأهل الكتاب، وحياته المملوءة بالفسق والمجون – كل هذه المساوئ وغيرها سكت عنها الحنابلة والأشاعرة. ومن ذلك أيضا تشنيع أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري على المعتزلي ابن دريد في مقدمة كتابه «تهذيب اللغة»، حيث يقول: «وألقيته (= أي ابن دريد) أنا على كبر سنه سكرانَ، لا يكاد يستمر لسانه على الكلام من سكره ...»(١٠).

ثالثا: إن المعتزلة وأصحاب أبي حنيفة، وإن كانوا قد حللوا بعض أنواع النبيذ، على مذهب أهل العراق، إلا أنهم لم يصلوا في ذلك إلى حد الفجر والفسق الذي نعرفه عن أبي نواس مثلا. يُحكى أن المكتفي سأل الصولي مرة: «أتعرف أهتك بيت قالته العرب؟ قال: قول أبي نواس: ألا فاسقني خمرا، وقل لي: هي الخمر»(١١). نعم نحن نعرف أن الجاحظ قد امتدح النبيذ في رسالة «مدح النبيذ»، ورسالة «الشارب والمشروب»، حيث يقول مثلا في رسالته «مدح النبيذ»: «وإن كل شراب، وإن حلا ورق، ...، وطاب وعذب، ...، فإن استطابتك لأول جرعة منه أكثر ...، ثم لا يزال في نقصان، إلى أن يعود مكروها وبلية، إلا النبيذ، فإن القدح الثاني أسهل من الأول، والثالث أيسر، والرابع ألذ، والخامس أسلس، والسادس أطرب، إلى أن يسلمك إلى النوم الذي هو حياتك»(١٢). ولكنه مع ذلك كان دائم التحذير من إدمان الشرب، والإكثار منه.

رابعا: اختلف الأئمة في مسألة تحريم الخمر أو تحليلها. فذهب الشافعي ومالك وابن حنبل إلى القول بأن المراد بالخمر هو «جميع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها. وقالوا: كلها تسمى خمرا، وكلها محرمة»(١٣). أما أبو حنيفة، فقد حلل بعض أنواع الأنبذة، كنبيذ التمر والزبيب، «إن طبخ أدنى طبخ، وشرب منه قدر لا يُسكر»(١٤). وقد واجه أبو حنيفة أحيانا بعض المواقف الحرجة نتيجة لموقفه هذا من الخمر، ولولا سرعة بديهته، ورجاحة عقله، لما وجد لهذه المآزق مخرجا. يحكي صاحب «محاضرات الأدباء»، قائلا: «قال ابن أبي ليلى لأبي حنيفة: أيحل النبيذ وبيعه وشراؤه؟ قال: نعم. قال: أفيسرك أن أمك نباذة؟ فقال أبو حنيفة: أيحل الغناء وسماعه؟ قال نعم. قال: أفيسرك أن أمك مغنية؟ ووضع رجل بالكوفة على باب المسجد نبيذا بين يديه وجعل ينادي: مَن يشتري رطلا بدرهم بتحليل أبي حنيفة؟ فقال له أبو حنيفة: يا رجل، إنك فعلت قبيحا!! فقال: ألست حللته؟ قال: صدقت. ومن الحلال أنك تجامع امرأتك، ولو استحضرتها الجامع، وجامعتها لاستقبح ذلك. ولقى أبو حنيفة سكرانَ، فقال له السكران: يا أبا حنيفة، يا ابن الزانية، إني شربت النبيذ!! فقال: ما أحسنتُ حيث أحللت النبيذ، حتى شربه مثلك»(١٥).

خامسا: منذ القرون الأولى للإسلام نشب صراع عنيف بين المتشددين في الالتزام بأحكام الشريعة من ناحية، والمتساهلين في تأدية فرائض الإسلام من ناحية أخرى. كان الحنابلة من كبار ممثلي التيار المتشدد في الأمصار العربية بصفة عامة، في حين أن التيار المتساهل كان يمثله بعض فرق الصوفية. دأب المتشددون على اتهام المتساهلين بالفسق والإلحاد، ورد المتساهلون على المتشددين متهمين إياهم بالنفاق والخبث. فالتشدد عند الصوفية، ليس إلا قناعا يخفي المتشددون وراءه الجهل والخبث والرياء. هذه الفكرة بالذات هي أحد أهم الموضوعات التي عالجها كبار شعراء الفرس: عمر الخيام، وجلال الدين الرومي، وحافظ الشيرازي. كان بعض المتصوفة في بادئ الأمر من ألد أعداء عمر الخيام. ولكنهم استحسنوا بعد ذلك بعض رباعياته، وأدخلوها في أورادهم، واهتموا بدراستها(١٦). يقول الشاعر القدير، أحمد رامي، صاحب أجمل ترجمة عربية لرباعيات الخيام – وهي الترجمة التي غنت أم كلثوم بعض مقاطعها – : «هذا هو الخيام الذي رماه الناس بالزندقة في عهده، والذي تقرن أشعاره اليوم بأشعار ابن أبي الخير والأنصاري والعطار، وهم من أطهر الشعراء صفحة»(١٧). يشن الخيام هجوما عنيفا ضد أدعياء الزهد والمتاجرين بالدين، متهما إياهم باستنزاف دماء العباد، في حين أنه لا يقتل أحدا، ولا يشاغب أحدا. كل ما يفعله هو أنه يواسي وحدته بالخمر. ومع ذلك لم يتركوه وشأنه:

«يا مُـدّعي الزهــد أنا أكــــرم
منك، وعقلي ثمــلا أحــكـــــم
تستنزف الخـلـق، وما استـقي،
إلا دم الكرم، فمن آثم»(١٨).

ويقول في موضع آخر:

«خيــــر لي العشـــــق وكأس المدام
من ادعــاء الزهـــد والاحتشـــــــام
لــو كانت النــــــار لمثـــلي، خلــت
جنات عدن من جميع الأنام»(١٩).

ويدافع شاعر إيران الكبير حافظ الشيرازي عن الفكرة نفسها – أي أن المتصوفة قوم لا يؤذون أحدا، ولا يبغضون أحدا، بل إن الحب مذهبهم، والتسامح عقيدتهم. وهم وإن كانوا يهملون الفرائض الدينية، إلا أنهم لا يقتلون أحدا، ولا يعتدون على أحد. يقول حافظ في غزلياته:

«وشارب الخمر الذي لا رياء فيه ولا نفاق
خير من بائع الزهد الذي يكون فيه الرياء وضعف الأخلاق
(...) ولربما نتجاوز عن فروض الله، ولكنا لا نفعل السوء بأحد من العباد
فإذا قالوا: ليس هذا صوابا. قلنا: هذا هو عين الصواب، ومحض الإسعاد»(٢٠).

سادسا: يشير المستشرق بيرجل إلى ثلاثة مذاهب في شرب الخمر بصفة عامة: الأول يحرمها كلية، والثاني هو مذهب السكر والإدمان، والثالث هو مذهب الاعتدال في الشراب، بحيث لا يصل المرء أبدا إلى حالة السكر. وهذا المذهب الأخير يرى أن في الخمر منافع، يمكن تحقيقها، إذا تناول الإنسان منها قدرا يسيرا. وقد عبر عن هذا المذهب ابن المقفع في قوله:

«سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثـا ثم أتركـه صحيحا
فلسـت بقارف منه آثامـا ولست براكب منه قبيحا»(٢١).

وأوضح منه قول القائل: «القدح الأول يكسر العطش، والثاني يمريء الطعام، والثالث يفرح النفس، وما زاد على ذلك فضل»(٢٢).
ونختم هذا التمهيد بقولنا إنه لو لم يكن للخمر من مضار سوى تقبيحها للحسن، وتحسينها للقبيح، لكان ذلك سببا كافيا في منع الإسلام لها، فما بالك ببقية مضارها. بل إننا نرى المدمن يرى كل شيء معكوسا، فتأتي أفعاله مضحكة غريبة. يحكي صاحب «محاضرات الأدباء»، قائلا: «... قال العتابي: كان في دارنا سكران. فقعد على مصلى، وسلح فيه. فأخذت بيده إلى المستراح، فنام فيه! فقالت جاريتي: يا عجبا! كل شيء منه مقلوب. خرأ حيث ينام الناس، ونام حيث يخرأ الناس!»(٢٣).

الخمر في الشعر الإسلامي

بقلم المستشرق الألماني : يوحنا كريستوف بيرجل

من المعروف أن شرب الخمر ممنوع في العالم الإسلامي. وقد ورد هذا التحريم في القرآن الكريم، ولكنه مر بمراحل متعاقبة. ففي البداية لم يكن هناك أي تحريم للخمر على الإطلاق، بل إن آية قرآنية مبكرة تذكر الخمر ضمن الأشياء التي يمكن فهمها على أنها من النعم الإلهية، مثل اللبن وعسل النحل، وأشباههما. تقول تلك الآية الكريمة: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا»(النحل - ٦٧).
ثم تلا ذلك أول تقييد من خلال الآية التالية: «يسألونك عن الخمر والميسر. قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما»(البقرة - ٢١٩). ولكن نظرا لاستمرار بعض المسلمين الأوائل في حضور الصلاة، وهم في حالة سكر أو انتشاء، فقد نزلت الآية التالية، لتحرم شرب الخمر بحسم ووضوح: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون»(النساء -٤٣).
وتبع ذلك أخيرا الاستنكار المطلق لشرب الخمر، حيث يقول الله تعالى في كتابه المبين: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله، وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون»(المائدة ٩٠ -٩١). وعندما يظهر تعارض بين البلاغات الإلهية، يؤخذ بالآيات المتأخرة، باعتبارها ناسخة للمبكرات.
الخمر إذن محرمة على المسلم. بيد أن هذا لا يعني أنه لم يتناولها، من حين لآخر، سرا أو علانية، بإسراف شديد. فيُحكى عن عمرو بن معدي كرب أنه مرّ بعيينة بن حصن « فأطعمه تمرا، ثم قال: أسقيك لبنا، أو ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية؟ فقال: أليس قد أمرنا بتحريمها؟ قال عيينة: كلا، إن الله تعالى قال: ' فهل أنتم منتهون؟ ' (الآية السابقة) فقلنا: لا»(١).
ولا شك أن جاذبية الممنوع قد لعبت هنا دورا هاما. وبالمناسبة فكثيرا ما كان الحكام بالذات - على مر تاريخ الدولة الإسلامية - هم الذين تجاهلوا مبدأ تحريم الخمر، وإن كان ذلك لا ينطبق، إلا على حالات فردية من الخلفاء.
ومن الأمثلة المبكرة لذلك حالة الخليفة الأموي يزيد بن معاوية (حكم من سنة ٦٨٠م حتى ٦٨٣م) الذي وصلنا منه بعض القصائد الطريفة في الخمر، يُقارن الخمر في إحداها، كالعادة، بالشمس، ثم يطور من ذلك معنى بهيجا مبنيا على نظرة فلكية شاملة، حيث يقول ما معناه: إن الشمس المنبثقة من عنقود العنب، موقعها من البروج هو إبريق الخمر. مشرقها في يد الساقي، ومغربها في حلقي(٢).
ثم إن شرب الخمر وتمجيدها قد بلغا حدا فاحشا حقا في عصر حاكم آخر من بني أمية، وهو الخليفة الزنديق الوليد بن يزيد بن عبد الملك (حكم من سنة ٧٤٣م حتى٧٤٤م) الذي كان فاشلا كخليفة، بيد أنه كان شاعرا نابغا ملهما. وهو صاحب بعض أجمل القصائد الخمرية التي وصلتنا باللغة العربية، مثال ذلك القصيدة التالية:

«إصدعْ نجيّ الهموم بالطرب وانعم على الدهـر بابنة العنب
واستقبل العيشَ في نضارته ولا تقف منه آثـار معتقب
من قهوة زانها تقادمها فهي عجوز تعلو على الحقب
أشهى إلى الشرب يوم جلوتها من الفتـاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها حتى تبدت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سـائل الذهب
كأنها في زجاجها قبسٌ تذكو ضيـاءً في عين مرتقب
في فتيـة من بني أمية أهـ ـل المجد والمأثرات والحسب
ما في الورى مثلهم ولا فيهم مثلَي ولا مُنتَمٍ لمثل أبي»(٣).

كلا، إن أمير المؤمنين هذا لم يكن من الإيمان في شئ. وكان مما اعترف به علانية وصراحة انتسابه إلى تلك الأفكار الإلحادية. فعندما كتب إليه عمه هشام، قائلا: «ما تدع شيئا من المنكر، إلا أتيته وارتكبته، غير متحاشٍ ولا مستترٍ، فليت شعري، ما دينك؟! أعلى الإسلام أنت، أم لا؟»(٤).
رد عليه الوليد بالأبيات التالية:

«يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاكر (= هو ابن هشام)
نشربها (= أي الخمر) صرفا وممزوجة بالسخن أحيانا وبالفاتر»(٥).

وإلى مجون مشابه تنتهي أيضا الأبيات التالية:

«أدرِ الكأسَ يمينـــــا لا تُدرها ليســـــــارِ
اسْـقِ هذا ثم هـــــذا صـاحبَ العودِ النـضارِ
مِن كُــميت عتّقـــوها منذ دهر في جـــــرارِ
ختــمـــوها بالأفاويــ ـه وكافور وقــــــارِ
فلقـــد أيقـــنت أنــــي غير مبعوث لنـــــارِ
ســـأروض النــاس حتى يركبوا أيرَ الحمـــــارِ
وذروا من يطـلب الجنـ ـة يسـعى لتبار»(٦).

الخمر عند أبي نواس

إن الفكرة الماجنة الخاصة بدين الخمر، أي بتقديسها وعبادتها، التي وردت في الأبيات السابقة، عادت مرة أخرى للظهور عند أهم وأشهر شعراء الخمر في الأدب العربي على الإطلاق، ونعني بذلك أكثر شعراء العرب هوسا ومجونا: أبا نواس – والذي كان، برغم مخالفاته المتكررة للشريعة الإسلامية، يتمتع بمكانة خاصة لدى الخلفاء العباسيين في ذلك الوقت.

مثل الوليد، نظم أبو نواس أيضا، كمراعاة لقواعد السلوك، قصائد خمرية للخلفاء، ولكنه ترك أيضا أشعارا نابية قبيحة، تعمد فيها الخلاعة والبذاءة. وكثيرا ما كانت هذه الأشعار القبيحة عند أبي نواس نتيجة لميله إلى حب الصبيان وممارسة الشذوذ الجنسي، حيث طعّم هذه الأشعار بتفصيلات داعرة. وتمثل القصيدة التالية نموذجا للأشعار التي نظمها أبو نواس لقصر الخلافة، حيث اختتمها بوصف أقداح الخمر الساسانية، التي اشتهر عن حق بوصفه المتميز لها:

«وخمارٍ حطـطـتُ إليــه ليـــلا قلائصَ قد ونينَ مـــــن الســـفارِ
فجـمجَـمَ، والكـرى في مُقلتيـه كمخمورٍ شـــــكا ألمَ الخـمـــارِ
أبِنْ لي كيف صرتَ إلى حـريميَ، ونجم اللّيــل مكتحلٌ بـــــقـارِ؟
فـقـلت له: ترفـقْ بـي، فـإنـــي رأيت الصـــبحَ من خــلَلِ الديـارِ
فكان جوابــه أن قال: صـبـــحٌ! ولا صبـــحٌ سوى ضـــوءِ العُقـارِ
وقـــام إلى العُقـــار فسدّ فاهـــا فعـــاد الليـــــل مُســــودّ الإزارِ
فحلّ بِزالها في قـعــــر كـــأس مـــحـــفرة الجـــوانـب والقــــرارِ
مصورةٍ بصـــورة جند كســـرى وكســـــرى في قــرار الطرجـــهارِ
وجلّ الجنـــد تحت رِكاب كسـرى بأعــــمـــدة، وأقبيـــة قصـــارِ»(٧).

وفي مقابل ذلك يقدم أبو نواس في القصيدة التالية اعترافا استفزازيا بالانتساب إلى دين الخمر:

«أبحتُ حريمَ الكأس إذ كنتُ مُثْــريا، وأقصرتُ عنها بعدما صرتُ معســـرا
ولـــــو أن مــــالي يستـــقلّ بلـذتي، لأنسيت أهل اللهو كسـرى وقيصـــرا
وثقت بعفو الله عن كــل مســـــلم، فلست عن الصهباء ما عشت مقصـرا
وأحورَ، مخلــــوعِ الزمـــــام، تخــالهُ قضيبا من الريحان، يهتز أخضـــــرا
مريضِ جفـــونِ المقلتين، مُــزنّـــــرٍ، له شــــفةٌ مَن مصـــها مص سُـــكرا
فلو أنه يقظان، أو في منــــامـــــه يجـــود لأعمى بالولاء لأبصــــــرا
يخرّ لصرف الكأس في السكر ساجدا، وإن مُزجت صلى عليـــها، وكبّرا»(٨).

وبرغم التزام أبي نواس الواضح بالتقاليد الأدبية الخاصة بكتابة الشعر، إلا أن هذا لم يأت على حساب المعنى، حيث تُظهر أشعاره قدرا هائلا من الخواطر والمعاني الأصيلة. وهو في ذلك لا يخفي وجهات نظره الشخصية. من ذلك مثلاً تفضيله الانغماس في لذاته السلمية، على المشاركة في الغزوات الحربية المنتظمة التي كان يقوم بها الخليفة – أي الجهاد السنوي. يقول أبو نواس:

«يا بشر ما لي والســــيف والحـرب، وإن نجمي للهـــــــو والطرب
فلا تـثــــــق بـي، فإنـنـي رجـلٌ أكـعّ عند اللقـــــــاء والطلب
وإن رأيتُ الشـراة قد طلـــعـــوا، ألجمتُ مهـــري من جانب الذنب
ولستُ أدري ما الساعدان، ولا الــ ـترس، وما بيـضـــة من اللبب
همي، إذا ما حـــــروبهم غلبت، أي الطـــريقين لي إلى الهـرب
لو كان قصف، وشرب صـــافية، مع كل خود تختال في الســـلب
والنوم عند الفتــــاة أرشـــفــها، وجدتني ثمّ فارسَ العـــرب!»(٩).

ثم إن هناك أيضا قصيدة أخرى ممتعة لأبي نواس، يصف فيها حفلة سكر ماجنة، مستخدما في ذلك استعارات حربية، حيث يقول:

«إذا عبّا أبــو الهيجـا ء للهيجـــاء فرســـانا
وســارت راية المــوت، أمام الشــيخ إعـــلانا
وشبت حربها واشـــتـــ ـعلت تُلهبُ نيــــرانا
وأبدت لوعـــة الوقعـــ ـة أضـراسا وأسنـــانا
جعلنـــا القوس أيدينا، ونبل القـوس سوْسانا
وقدمنا مكـــان النبـــ ـل والمطـرد ريحـــانا

فعـادت حربـنا أنسـا، وعدنا نـحن خُـــلانا
بفتيان يروْن القــتـــــ ـل في اللذة قُـربانا
إذا ما ضربوا الطبـــل، ضربنا نحـن عيـدانا
وأنشأنا كـــراديســـــا من الخيـري ألـــوانا
وأحجارُ المجـــانيــــقِ لنا تفاح لـبنــــانا
ومنشا حربنا ســـــاقٍ سبا خمـرا، فســـقانا
يحث الكأس كي تلحـ ـــق أخـــرانا بأولانا
ترى هذاك مصروعـــا، وذا ينجـر ســـكرانا
فهذي الحــرب لا حرب تغم النـاس عـــدوانا
بـــها نقتلهـــــم ثم بها ننشر قتلانا»(١٠).

وهنا أيضا تقول الرسالة غير المعلنة التي يريد أبو نواس إبلاغها: من الأفضل أن يسقط المرء في مجلس شراب أو حفلة سكر، على أن يسقط في ساحة القتال، لأن مُدمن الخمر عندما يسقط، يمكن إيقاظه وإحياؤه مرة أخرى، بعكس الساقط في ميدان القتال.

الخمر عند الحلاج

ومهما بدا الحديث عن دين الخمر في أحيان كثيرة ماجنا، بل ملحدا، إلا أن ثمة إمكانية أخرى للمعنى تظل كامنة في صميمه: فالخمر قد ورد ذكرها في القرآن كإحدى متع الجنة التي وعد الله بها المؤمنين، حيث سيقوم الصبيان الحسان والحور العين بخدمة المؤمن التقي، المستلقي على وسائد وثيرة، والمستظل بأشجار مورقة، تجري من تحتها الأنهار، مستمتعا باحتساء الخمر. ولكن الخمر كانت أيضا في الوقت نفسه – وقد كان ذلك بالطبع في بغداد والأمصار الإسلامية الأخرى التي عاش فيها النصارى – معروفة كرمز محوري للدين المسيحي. وهكذا أمكن بالفعل ربط الخمر بصفة دينية، وهذا ما قام به التصوف الإسلامي. وهنا صارت الخمر رمزا للفيض الإلهي، وأصبح السكر يمثل صورة للوجد الصوفي.

وتوجد بعض البدايات المبكرة لهذا الاتجاه عند الحلاج، الصوفي الشهير الذي أعدِمَ سنة ٩٢٢م، بعد أن اتهمه أهل السنة بالإلحاد. ففي قصيدة قصيرة يصف الحلاج الله تعالى – على سبيل المثال – على أنه الساقي الذي يقدم شراب الاتصال الروحي، حيث يقول:

«نديمي غير منســـوب إلى شـئ مـــن الحيـــــف
سقاني مثلما يشـرب كفعـــل الضيـــف بالضيـف
فلمـــا دارت الكأس دعـــا بالنطــــع والســـيف
كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيف»(١١).

الخمر عند ابن الفارض

وقد تم التوسع بعد ذلك في هذه الاستعارات الخمرية الصوفية، حتى صارت عنصرا رئيسيا عند الشعراء المتأخرين، وخاصة في إيران وتركيا العثمانية وشبه القارة الهندية. ولم يظهر في تاريخ الشعر الصوفي العربي، إلا عدد قليل من الشعراء الفطاحل. والواقع أنه لا يوجد، إلا شاعر واحد فحل في هذا الحقل عند العرب، وهو عمر بن الفارض (توفي سنة ١٢٣٥م)، الذي يمثل ديوانه إلى حد بعيد تمجيدا للخمر الصوفية، والسكر عند المتصوفة. ونجد في هذا الديوان أبياتا كثيرة لا تحمل في مضمونها منفردة أي معنى صوفي، ولا تكتسب معنى صوفيا، إلا من خلال سياق القصيدة. وبصفة عامة أصبحت الخمر عند ابن الفارض رمزا للقوة المطلقة التي يصل إليها المتصوف عن طريق الخضوع الكامل للبارئ والاتحاد معه. وهكذا يصف ابن الفارض الخمرَ في إحدى قصائده الخمرية، كما يلي:

«شربنا، على ذكر الحبيب، مـدامة، سكرنا بها، من قبل أن يُخلق الكــرمُ
ومن بين أحشاء الدنان تصَـاعدت، ولم يبقَ منها، في الحقيقـة، إلا اســـمُ
وإن خطرت يوما على خاطـر امرئ أقامت به الأفراح، وارتحـل الهـــــمُ
ولو نظـر الندمــان ختم إنائـــــها، لأسكرهم من دونـــها ذلـك الختـــمُ
ولو نضحوا منها ثرى قبـــر ميت، لعادت إليه الروح، وانتعش الجســـمُ
ولو طرحوا، في فيء حائط كرمها، عليلا، وقد أشفى، لفارقه السقمُ»(١٢).

ويستمر ابن الفارض في وصف الخمر، التي تتحول عنده إلى مادة ذات مفعول سحري. وكان أبو نواس أيضا قد وصف الخمر بأشياء مشابهة، ولكن بمبالغة ماجنة. بيد أن قوة الخمر هاهنا ترمز إلى قدرة الأولياء عند الصوفية على الإتيان بالكرامات.

الخمر عند جلال الدين الرومي

ويختلف الأمر عند المتصوف الإيراني الكبير جلال الدين الرومي. فالنشوة – أي الوجد الصوفي – التي يشعر بها عندما يخلو بصديقه شمس الدين – تحتل موقع الصدارة في قصائده:

«من ذلك الفتى ذي الشفاة العذبـة
من ذاك الساقي اللطيف الطلعــة
انتـشـــــت الــــروح والجـســـد
يا صديقي لا تنم هذه الليلة»(١٣).

وهكذا تبدأ أحد غزلياته المهداة إلى صديقه بنبرات تبدو من ظاهرها خمرية – غزلية جدا. ولكن أيضا عند الرومي يتطرق الحديث إلى موضوع الخمر السرمدي، كما توضح ذلك أبيات غزل آخر، يقول فيها ما معناه:
«قبل أن تُخلق الحدائق والبساتين، والأعناب والخمور، كانت أرواحنا منتشية بالخمر السرمدية (= الفيض الإلهي). وقبل أن تصير النفس الكلية مهندسا معماريا يشكل الأشكال من الماء والطين، شربت أرواحنا الخمر الإلهية في خرابات (= حانات) الحقائق الإلهية. أيها الساقي، سكّر المعجب بالماء والطين (= الرافض للخمر الصوفية)، لكي يعرف ما فاته من سعادة. فديت حياتي لساقٍ، يأتي من عالم الروح، كي يرفع النقاب عن كل مستتر»(١٤).

الخمر عند عمر الخيام

ومهما قصر حديثنا عن الأشعار الخمرية في الإسلام، فلا يجوز أن نتغافل الإشارة إلى شاعرين كبيرين. الأول هو عالم الرياضيات والفلك عمر الخيام (توفي سنة ١١٢٢م) – والذي اشتهر في الغرب بفضل رباعياته. والثاني هو الشاعر حافظ الشيرازي (١٣٢٦ – ١٣٨٩م). أما العالم عمر الخيام، فقد دعى في رباعياته – التي كان ينظمها في أوقات فراغه بإتقان وسلاسة – إلى حياة مرحة صافية، خالية من الهموم، مملوءة باللذات الحسية، نظرا لزوال وتفاهة كل ما هو أرضي دنيوي. على أن رباعيات الخيام لا تخلو من نزعة إنسانية واضحة، مصحوبة بنقد الدين المستتب والتهكم عليه. وهي عناصر نجدها فيما بعد أيضا عند حافظ الشيرازي المتأثر بعمر الخيام. وهكذا يبرر عمر الخيام شربه الخمرَ – مثلما يفعل حافظ من بعده – بالقضاء والقدر في الإسلام، أو يعتمد على رحمة الله تعالى(١٥). وهو يدعي أن تحريم الخمر لا ينطبق، إلا على الأغبياء. ثم إنه يبيح الاستمتاع بالخمر في إحدى قفشاته الماجنة، حيث يقول ما معناه: «تقولون إني سأحاسب، لأني أشرب الخمر. وتأمروني بالبعد عن ماء العنب الذي يحرمه الدين. ولكن يبدو أن متعة الخمر محللة لي لأجل ذلك. لقد أمر النبي (ص) أن نسفح دم عدو الدين (= الخمر)»(١٦).

الخمر وحافظ الشيرازي

أما حافظ الشيرازي، فهو الشاعر الذي أثارت غزلياته لدى شاعر ألمانيا العظيم جوته – في شيخوخته – إعجابا وحماسا شديدين، جعلاه يشعر بأن عليه أن يكون أكثر اجتهادا وأغزر إنتاجا، حيث يقول في مذكراته: « ... إن مجموعة أشعار حافظ الشيرازي قد أثرت فيّ تأثيرا عميقا قويا، حملني على أن أنتج وأفيض بما أحس وأشعر، لأني لم أكن قادرا على مقاومة هذا التأثير القوي على نحو آخر، لقد كان التأثير حيا قويا ...»(١٧). وبدأ جوته يكتب قصائد «إلى حافظ»، والتي تكون منها «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي». ويعتبر هذا الديوان إلى حد بعيد حوارا مع الشاعر الشرقي الذي أراد جوته أن يتنافس معه. يقول جوته في قصيدته «غير محدود»:

«وليفن العالم كله، أي حافظ!
فإني لا أريد أن أنافس غيرك،
غيرك أنت وحدك!
فلنتقاسم سويا، نحن التوأمين،
كل إيلام وكل سرور
فما تحبه أنت وما تحتسيه،
يجب أن يكون مفخرتي، بل وحياتي»(١٨).

ولكن كيف كان حافظ الشيرازي يشرب ويحب؟ تصعب الإجابة على هذا السؤال في سطور قليلة. ولذلك سنكتفي هنا بذكر ما يلي: إن الخمر عند حافظ لا تعني نبيذَ عصير العنب فحسب، ولكنها أيضا ترمز لأشياء أخرى. فثمة أبيات خمرية بحتة، مثل:

«وشراب عمره حولان، ومحبوب عمره أربع عشرة سنة
كافيان لي من صحبة الكبير والصغير ...!!»(١٩).

أما الأشياء الأخرى التي ترمز إليها استعارات حافظ الخمرية، فلم تكن عنده بالضرورة صوفية، ولكن ذهنية – بل كانت من جديد في نهاية المطاف دينية، أي لها علاقة بدين الحب ذلك الذي نادى به حافظ – اتباعا لديانة زرادشت – وكموقف معارض للتشدد في تطبيق أحكام الشريعة. ومن هنا فهو يجعل الوضوء في أشعاره ليس بالماء – كما يفعل المسلم المؤمن – ولكن بالخمر. وهو بالطبع ما لا ينبغي فهمه حرفيا، بل كنقد واضح للتدين المنقوص، المرائي للشريعة، والذي لا يأخذ من الدين، إلا ظاهره. وأكثر من ذلك ما نجده توا في أول غزليات ديوان حافظ: فالشيخ الزرادشتي – رئيس إحدى الأديرة الزرادشتية – وهو شخصية ذات أهمية مركزية في شعر حافظ – يأمر تلامذته أن يطلوا سجادة الصلاة بالخمر، كرمز للانتقال إلى مرحلة جديدة من الغنوصية، يتمتع أصحابها بأخلاق أسمى وأرقى من أخلاق طبقة المتمسحين بالدين، الذين يتمسكون بالقشور، ويهملون الأصول، كما يوضح الديوان بعبارات لطيفة – كرمز لروح حرة محبة للإنسانية:

«وماذا يحدث وماذا يضيرك؟! لو أنني شربت معك بضع أقداح من الشراب المعتق؟!
والخمر من «دم العناقيد»، وليس من دمك المهرق!!»(٢٠).

ولا يزال هذا البيت في غاية الأهمية في مجتمع ما انفك يقتل مواطنيه باسم الدين. لقد استمع جوته إلى كل هذا الطرب، ولكنه أدرك أيضا عمق الفكرة، وبعد الغور، في أشعار حافظ، وسكره الأبدي. وتغنى هو أيضا في «كتاب الساقي» بطريقة مرحة عميقة. وفي «كتاب المغني» يختتم قصيدة «الخلق والإحياء» بالمقطع الشعري التالي:

«وهكذا، أي حافظ! ليكن قصيدك الرائع،
وليكن مثلك السامي القدوس،

هاديا يحدونا خـــــلال جرس الكـؤوس،
ويهدينا بعد إلى معبد خالقنا الصانع»(٢١).

لقد حظيت الخمرُ في الشعر الإسلامي – تحديدا بسبب تحريمها – بأهمية بعيدة الغور غير متوقعة. وتتجاوز هذه الأهمية إلى حد بعيد رومانسية طَرب السكر المبالغ فيه في كثير من أغاني الخمر أو الشرب الألمانية.

هوامش المقدمة

(١)راجع: ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الهلال، بيروت (بدون تاريخ)، المجلد الثالث، ص ٣٢٨
(٢) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٢٩
(٣) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٢٩
(٤) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٣٤
(٥) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٣٢
(٦) أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، مكتبة الحياة، بيروت (بدون تاريخ)، المجلد الأول، ص ٦٧٠
(٧) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق المستشرق ي. دي خويه، ليدن ١٩٠٦، ص ٤١
(٨) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٢، ص ١٣٦
(٩) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب، دار الفكر، بيروت ١٩٧٣، المجلد الرابع، ص ٨٦
(١٠) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ومحمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر & الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤، المجلد الأول، ص ٣١
(١١) الأصبهاني، محاضرات الأدباء، المجلد الأول، ص ٦٨١
(١٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة ١٩٧٩، الجزء الثالث، ص ١٢٣
(١٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت (بدون تاريخ)، المجلد الأول، ص ١١٩
(١٤) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١١٩
(١٥) الأصبهاني، محاضرات الأدباء، المجلد الأول، ص ٦٦٩
(١٦) راجع: أحمد رامي، الترجمة العربية لرباعيات الخيام، دار العودة، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٨
(١٧) المرجع السابق، ص ٢٨
(١٨) المرجع السابق، ص ٧٢
(١٩) المرجع السابق، ص ١٠٧
(٢٠) أغاني شيراز أو غزليات حافظ الشيرازي، ترجمة ابراهيم أمين الشواربي، القاهرة ١٩٤٤، ص ٦٨
(٢١) الأصبهاني، محاضرات الأدباء، المجلد الأول، ص ٦٧٩
(٢٢) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٦٧٨
(٢٣) المرجع نفسه، المجلد الأول، ص ٦٧٧

هوامش بحث بيرجل

(١) أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الهلال، بيروت (بدون تاريخ)، المجلد الأول، ص ٦٧٠
(٢) راجع: P. Schwarz, Escorialstudien-Studien zur arabischen Literatur- und Sprachkunde I, Stuttgart 1922, S. 61
(٣) أبو الفرج الاصبهاني، كتاب الأغاني، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة – بدون تاريخ – الجزء السابع، ص١٩
(٤) المرجع نفسه، ج٧، ص٣
(٥) المرجع نفسه، ج٧، ص٤
(٦) المرجع نفسه، ج٧، ص٤٦
(٧) ديوان أبي نواس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٦، ص٢٤٧
(٨) المرجع نفسه، ص٢٧٦
(٩) المرجع نفسه، ص٤٦
(١٠) المرجع نفسه، ص٦١٣
(١١) لويس ماسينيون، ديوان الحلاج، باريس ١٩٣١، ص٧٣ – (L. Massignon, Le Diwân d'al-Hallâj, Paris 1931).
(١٢) ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت ١٩٦٢، ص١٤٠–١٤١
(١٣) Johann Christoph Bürgel, Licht und Reigen, Bern-Frankfurt / Main 1974, S. 47
(١٤) المرجع نفسه، ص٣٠

(١٥) يقول الخيام في ذلك:

«إن لم أكـن أخلصـت في طاعتـك
فإنــني أطــمــع في رحـمتـــك
وإنمــا يشــــفـع لــي أنـنــي
قد عشـــــت لا أشرك في وحدتك»

راجع: أحمد رامي، الترجمة العربية لرباعيات الخيام، دار العودة، بيروت ١٩٨٣، ص ٥٤

(١٦) راجع الرباعية رقم ٧٦ من ترجمة شاك (A. F. Schack) الألمانية لرباعيات الخيام، شتوشجارت & برلين (بدون تاريخ).

(١٧) جوته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص٨

(١٨) المرجع نفسه، ص١٠٤

(١٩) أغاني شيراز أو غزليات حافظ الشيرازي، ترجمة ابراهيم أمين الشواربي، القاهرة ١٩٤٤، ص٢٥٧–٢٥٨

(٢٠) المرجع نفسه، ص٦٨

(٢١) جوته، الديون الشرقي للمؤلف الغربي، ص٧٥